طب نفسى

عرض لكتاب

حيث تزمجر الجبال

من تأليف

ليزلى هيزقشن

د. محمد شعلان

أكتوبر

المؤلفة أخصائية نفسية تحولت إلى الصحافة والتأليف . . وهى يهودية بريطانية تحولت إلى إسرائيلية ثم إلى مواطنة أمريكية . . قضت عاما فى الصحراء بين النقب وسيناء (قبل عودتها إلى السيادة المصرية) .

لقد كانت تهدف إلى وصف الصحراء ولكن افتتانها بها جعلها تتحدث باسم الصحراء : للصحراء لاعنها . إذ بعد أن كانت بداية رحلتها سلسلة من المحاضرات فى علم النفس تلقيها فى الجامعة بالنقب ، أى رحلة بدأتها كمهنية متخصصة ، وجدت تأثير الصحراء قد أحدث فيها تحولا وجدانيا.

العقلية المهنية المتخصصة تنظر إلى الأشياء من منظور محدد ولا تراها شاملة . فعالم الجيولوجيا يرى الصحراء مجموعة من التكوينات الطبيعية من رمال وصخور . وعالم البيولوجيا يرى فيها نباتات وحيوانات . أما عالم النفس فلعله يرى فيها سلوك ووعى سكانها القليلين من بدو رحّالة أو تجمعات سكانية فى القرى المتناثرة .

إلا أن عالم النفس أكثر من غيره يأخذ موضوع علمه حيثما ذهب . وهو نفسه . بل إنه لا يستطيع أن يفصل بين أداة العلم . أى نفسه . وبين موضوع علمه وهذا هو من أهم آثار الوجودية فى علم النفس . فالنفس هى الأخرى لا يمكن أن تنفصل عن موضوعها . فهى « نفس – فى – العالم » أو بالتعبير الألمانى « دازاين » Dasein

ولعل هذا التأثير الفلسفى فى علم النفس يعكس بدوره النقلة التى عاشتها المؤلفة من الموقف التخصصى الذى ينظر إلى المواضيع الخارجية كأنها مواضيع « هناك » لا علاقة لها بالمشاهد ويمكن وصفها بذاتها إلى الموقف الشمولى الذى يرى المواضيع الخارجية مرتبطة فى طبيعتها بما يضفيه عليها المشاهد من صفات ، وهى صفات ترتبط بدورها بعضها ببعض .

فالصحراء ليست مجرد رمال وصخور . ولا مجرد نباتات وحيوانات . ولا مجرد موضوع خارجى هناك . بل هى كل هذا فى صورة واحدة متكاملة وهى فوق كل هذا حالة وجدانية داخلية : لعلها مواجهة الإنسان لوحدته وعزلته فى خلفية من اللامحدود والأبدى . إنها مواجهة بين الحياة فى بحثها عن الاستمرار والأبدية وقسوة الموت .

ولعلها لم تكن صدفة أن الأديان السماوية الوحدانية الثلاثة نبعت من الصحراء . صحراء هذه المنطقة بالذات . بل إنها نبعت بعد أن انعزل كل من أنبيائها – موسى وعيسى ومحمد (عليهم السلام) – لمدة أربعين يوما فى أحضانها بعيدا عن ضجيج البشر . الصحراء تذكر الإنسان بمحدوديته فى الزمان والمكان . وتجعله يرى بالمقارنة ما هو لا محدود ولا نهائى فى الزمان والمكان . وهو الإله الواحد .

لقد بدأت المؤلفة رحلتها وهى تعبد وثنا من ضمن الأوثان . أوترى الأشياء من منظور دون غيره . وهو منظور تخصص علم النفس . ثم أفاقتها صدمة الصحراء لتكتشف أنه إذا كان ولنها إلها كما كانت تعتقد . فكل عابد لكل ولن آخر يعتقد بدوره أنه إله .

وإذا كانت كل هذه القلوب المؤمنة بألوهية أوثانها موجودة . وآلهتها بالتالى موجودة . وكل إله بالضرورة نفى لأى إله آخر . فهناك نقطة يتيقن فيها المؤمن أنه لا توجد آلهة البتة فيفقد إيمانه فيواجه وحدته بكل قسوتها وبرودها .

ولكن مواجهته لهذه الوحدة هى شكل يتطلب أرضية تبرزه والأرضية هى تلك الحيرة المناقضة للوحدة والعزلة ، وهى أنه جزء من وجود أكبر لا حدود له ولا نهاية . وذلك الوجود هو الاله الواحد الأحد !

المؤلفة لا تعلن هذا التحول صراحة ولكنها تعيشه وتعبر عنه من خلال كتابها . فقد وصفت الصحراء . أو على حد تعبيرها . تركت الصحراء تعبر عن نفسها من خلال قلمها الذى عبر بدوره عن وجدانها .

وقامت بهذا الوصف وهى مسلحة بخلفية مهنية

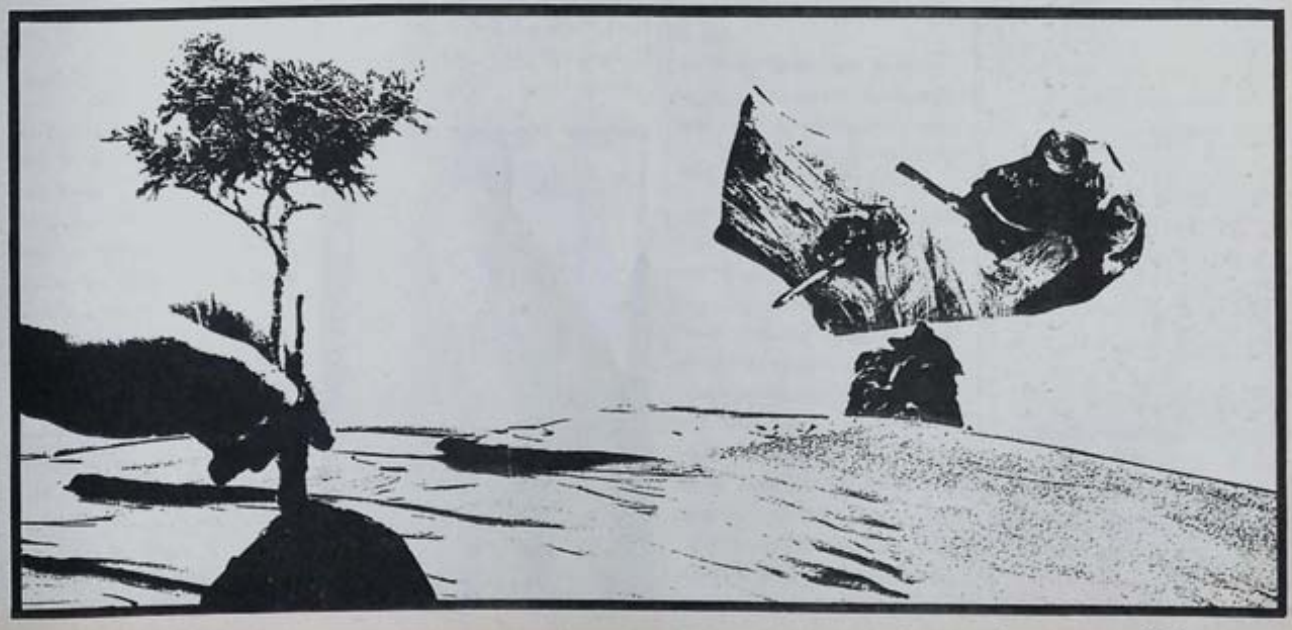

علمية دربت فكرها على الوضوح والتسلسل المنطق والتحليل والتصنيف . ولذلك فهى تصف كل ظاهرة على حدة : الرمال والصخور والمياه فى السماء وتحت الأرض ورحلتها بينها . والكائنات الحية من قواقع وقشريات وحيوانات ونباتات . ثم البشر من عرب بدو كانوا يتعايشون مع بيئتهم عبر آلاف السنين فى توازن . إلى أبناء المدينة من الإسرائيليين الذين جاءوها معتدين بمشاريعهم التعميرية أو الاستعمارية المغلفة بشعار أن « نجعل الصحراء تزهر » .

إنها ترفض أن تكون الحياة مجرد استمرار للوجود الحى بلا معنى آخر . فالقواقع والقشريات والنباتات والجمال التى عمرت الصحارى منذ ملايين السنين قد أثبتت قدرتها على ذلك رغم كل الصعوبات والقسوة التى تواجهها فى الصحارى . القواقع يتحرك ونحيا بمعدل عشرين يوما فى السنة الواحدة . فهو يختبئ داخل قشرته ويغلف مدخلها بغشاء يحميه من الجفاف ، بل إنه يحفر تماما باستثناء خلاياه الجنسية .

فإذا أمطرت استطاع أن يمتص كميات وفيرة من المياه تكفى حاجته لمدة طويلة ويعود إلى الحركة التى تبدأ أول ما تبدأ بالتناسل والتناكح من أجل التكاثر . ثم تستمر الحركة بعد ذلك للبحث عن الطعام من أجل الوجود الذاتى ومن أجل النسل الذى ينتج بكثرة تعوض عن فقدان غالبيته بالموت من فعل قوى الطبيعة أو التهام الطيور أو غيرها من الكائنات الحية .

الإنسان يحول وجوده إلى مجرد تناكح وتناسل بغية التكاثر الذى يلهيه حتى يزور المقابر . وهو إذا اقتصر على ذلك المستوى من الوجود يتحول إلى مجرد كائن حى آخر مثله مثل القواقع أو النباتات أو الجمال . لعله فى بادىء الأمر يرى أن الوجود هو تأكيد لوجوده على حساب وجود غيره .

فالكائنات الحية تأكل بعضها البعض إلا أن نجاح الإنسان بفضل قدرته على التواجد الجماعى والاستمرار الحضارى والذى عوضه عن افتقاره إلى الوسائل الطبيعية التى تؤكد وجوده فى مقابل البيئة القاسية . ذلك النجاح جعله يؤكد وجوده فعلا على حساب وجود غيره . فهو يأكل النباتات والحيوانات أو يسخرها لخدمته . بل إنه بعد ذلك يسعى إلى تحديد هويات مصطنعة داخل هويته الإنسانية هدفها تأكيد ذاتها فى مواجهة غيرها : فالرجل الأبيض ينفى وجود الرجل الأسود أو الأحمر أو الأصفر ويسعى إلى السيطرة عليه وتسخيره . وكذلك الأوروبى فى مواجهة الأفروآسيوى أو الغربى فى مواجهة الشرقى : أو المسلم والمسيحى واليهودى . كل يسعى إلى نفى الآخر أو تسخيره أو إخضاعه .

ونجاح الإنسان فى هذا التأكيد لذاته يجعله يواجه وحدته . فاللحظة التى يتأكد فيها أنه موجود دون غيره هى اللحظة التى يعى فيها وحدته وعزلته . هى لحظة المواجهة مع الصحراء وهى لحظة المواجهة مع الفناء . وعندها يكتشف اللانهاية أو يكتشف الله ويبدأ فى البحث عن القيم والمعانى والأهداف التى تتجاوز مجرد التأكيد للذات ، وتأخذ فى الاعتبار تأكيد وجود الغير وقبول الآخر .

ويعنى ذلك التعايش مع ماهو دونه من موجودات حية وغير حية . فى هذه اللحظة يتقبل اليهودى المسلم ويتقبل المسلم اليهودى ويتقبل الرجل الأبيض الأسود والأصفر والعكس . ويتقبل الجميع القواقع والقشريات والنباتات والحيوانات .

والتقبل أو التعايش لا يعنى إفناء الذات من أجل الغير مثلما هو نفى لتأكيد الذات على حساب الغير . بل هو تأكيد للذات والغير على السواء . إنها نقلة من تصارع ينفى فيه كل موجود ما عداه من موجودات إلى تعاون يؤكد فيه كل موجود غيره . أو تصارع يخسر فيه الطرفان إلى تعاون يكسب فيه الطرفان .

الصحراء فى حديثها عن نفسها من خلال هذا الكتاب هى صرخة الصحراء . بكل ما يوجد فيها ومن يوجد فيها من أجل البقاء فى مواجهة ما تراه اقتحاما من قبل الإنسان لها . الإنسان يكاد يفقد الهدف فى سعيه الأعمى للوجود البحت الذى لا يتأكد إلا بنفى غيره .

إنه يتكاثر وينتشر ويفتحم ويتقدم ولكنه فى عنفوان ونشوة نصره يغتال غيره الذى هو فى النهاية مصدر غذائه وبالتالى وجوده . وهو باغتياله له إنما يضع أول مسمار فى نعشه . فالإنسان الذى يبنى بيته ويعتدى عليها بجهالة ينسى بأن يجد نفسه وحيدا بلا بيئة تغلبه وتحميه وترعاه .

والصحراء ليست مجرد تلك الأرض برمالها وصخورها ونباتاتها وحيواناتها . ولكنها أيضا تراث حضارى إنسانى . بل هى أصل التراث الحضارى الإنسانى لكونها منبع الأديان السماوية الثلاثة والتى انتشرت لتسيطر على العالم (أو تكاد) اليوم . فسكان الصحراء ليسوا مجرد بدو أو حتى عرب بل هم العرب – المنبع والأصل – وإذا كانت فكرة محو وجودهم تتم اليوم على أيدى الإسرائيليين . فإن ذلك منبعه ليس من مجرد كونهم اسرائيليين أو يهودا . ولكن لكونهم ممثل حضارة غربية وغريبة على هذه المنطقة – منطقة صحراء .

إنها حضارة المدينة . والمدينة بشكل عام تهتك البداوة . وهى سابقة لها مثيلاتها فى اقتحام الإنسان الغربى لأمريكا على حساب سكانها الأصليين . وفرض حضارة مصطنعة تخل بتوازن الطبيعة . فالخطر على عرب الصحراء هو خطر إسرائيلى حاليا ولكنه فى جوهره خطر المدينة والمدنية بصفة عامة . وإذا كانت إسرائيل هى التى تحمل ذلك الذئب اليوم وتقوم بعملية « الصلب الحديثة » هذه للعرب فى البادية ، فإن الذئب ليس ذنبها وحدها بل هو ذئب العالم الغربى كله .

بل إنه ذئب تركبه بشاعة مبالغ فيها بكاريكاتورية وتشويه . الصفوة الكاذبة المصطنعة التى تربع على قمم المجتمعات العربية الحديثة – الصفوة الحديثة الثراء التى فشلت فى صنع حضارة نابعة من جذورها فاستعاضت عن ذلك باستيراد الحضارة الغربية جاهزة بأجهزتها . بل بجوها المكيف وزرعها بلا تذوق وسط صحرائها العريقة .

ويختم الكتاب بمناشدة الرئيس السادات ألا يحول منطقة سانت كاترين – كما فعل الإسرائيليون – إلى منطقة سياحية تتوافد عليها الأفواج بفوضاتها وسطحيتها فتفقدها ميزتها الروحية التى حافظت عليها عبر القرون . وهى تناشده ألا يبنى ذلك الصرح السياحى على هيئة مجمع لأماكن عبادة للأديان الثلاثة .

ولكنها مع ذلك قد أجابت على هذا النداء من حيث لا تدرى على لسان عالم المياه إيفينيرى أن رى الصحراء بالنسبة له هواية وتعبير عن فضول علمى . بل يرى أن ذلك موقف إسرائيل كمجتمع . وهو باعترافه يختلف فيما يتعلق بالعالم الثالث حيث رى الصحراء ضرورة .

وبالمثل فإن الرحلة الروحية التى قامت بها المؤلفة لمدة عام فى الصحراء هى تعبير عن بحث فرد عن ذاته . وهى حالة تتكرر بين حين وآخر من قبل المثقفين والمفكرين بل المغامرين من الغرب . برز منهم دوانى **Dasein** الإنجليزى الذى عايش العرب فى الجزيرة وكتب مذكراته عنهم . ثم لورانس العرب الذى زاوج بين بحثه عن ذاته وخدمته للأهداف القومية لانجلترا .

وها هى ذى مؤلفتنا أيضا تبحث عن ذاتها وهى تسعى لتحقيق ذلك التعايش بين المتناقضات التى عاشتها بداخلها : الانجليز واليهود وهو التناقض الذى نشأت عنه الحاجة إلى إيجاد دولة يهودية فى هذه المنطقة تمنع وحدتها الجغرافية وتستنزف طاقتها القتالية .

ثم التناقض بين إسرائيل والعرب والذى نشأ عنه ذلك التقاتل المرير الدامى ثم التصالح والتعايش الذى نحن بصدده اليوم . والتناقض بين المدنية والبادية حيث اعتداء المدنية على البادية يحرمها من أحد عناصر التوازن الطبيعى الذى سبق ان اختل فى المدينة .

والتناقض بين الرجل والمرأة حيث الرجل الذى طالما ادعى صنع الحضارة تاركا صناعة الأطفال للمرأة ، يفعل الآن على المستوى الجماعى ما تفعله المرأة . فهو يتكاثر وينتشر جسمانيا بلا هدف حضارى باق ، ومجرد التكاثر والانتشار .

والمؤلفة إنجليزية يهودية اسرائيلية أمريكية وامرأة تسعى لصنع حضارة تقوم على تآلف بين كل هذه المتناقضات . الرحلة الروحية بواسطة ضيافة الصحراء قامت بها ، بعد رفاهية ، القديسة كاترين . مثلها مثل بحث أفينيرى عن الحضرة فى الصحراء ، هى رفاهية بالنسبة لهذه القلة من الناس التى تملك الرغبة والقدرة على البحث . ولكنها بالنسبة للعالم الثالث ضرورة .

والرئيس السادات حينما يزمع إنشاء ذلك المجمع الدينى فى ذلك المكان إنما يعبر عن تلك الضرورة . فالعالم الثالث يتيقن بالطريق الصعب أن سيرته فى طريق القوة بدل الحكمة ، إنما جعله الطرف الأضعف فى المعادلة .

فشراء السلاح مربح للعالم الغربى ، واستخدامه يخسر العالم الثالث فوق المادة أرواحا شابة وغالية تاركة النساء بأطفالهن العديدين بلا رعاية . والبحث عن القيم المستلهمة من الأديان الثلاثة معا ضرورة وليست رفاهية . والقيم المطلوبة هى ما تسمح بالتعايش بين الأضداد وقبول الآخر واحترامه فالصراع الدامى لا يخدم حتى حامل السلاح ، إذ أنه يزداد تشبثا بسلاحه خوفا من انتظام غريمه منه . فهو يهلك نفسه خوفا وكرها إن لم يمت بفعل الانتظام .

بل لعل أضيف للكاتبة أن هناك مشروعا موازيا قد لا يرضيها لأول وهلة ، ولكنه بالمثل يعتبر ضرورة موضوعية للعالم الثالث . وذلك المشروع هو إقامة مركز للتنمية الذاتية هناك تستخدم تكنولوجيا علم النفس والعلاج النفسى من أجل تدريب الراغبين على القيام بمثل هذه الرحلات على مدى فترة قصيرة تتيسر لهم . ليست عاما كاملا وليست رحلة سياحية سطحية تستغرق ساعات أو أياما . إنها رحلة الروح فى العصر الحديث بمعاونة التكنولوجيا النفسية .